الفصل الأول

حرب أفغانستان

بداية حسنة ونهاية سيئة

في أواخر سنة 2011، كان الاقتتال في أفغانستان والعلاقة المتجمدة مع باكستان يؤثران سلبا على مخطط الرئيس في إنهاء الحرب على أفغانستان ويعرضانه للخطر. غير أن الإدارة الأمريكية ارتأت في ذاك الظرف إمكانية الاستعانة بالصين. فالصين، كانت ترغب في تحقيق الاستقرار في أفغانستان إضافة إلى انشغالها بالوضع في باكستان. فإلى وقت قريب، كانت قد استثمرت أموالا في مجال التنقيب عن المعادن في أفغانستان، تبين أن مردودها سيزيد بسبب اكتشاف حقول معدنية غنية في سنة 2010.[1] إضافة إلى ذلك، ترتبط الصين مع باكستان بعلاقات اقتصادية قديمة. فلهذه الأسباب مجتمعة، طلبت الإدارة الأمريكية من دبلوماسي محنك له علاقة بالصين الاتصال بالزعامة الصينية. وبالفعل قام الدبلوماسي بجولة في الصين قادته إلى **بيجين** حيث عقد لقاءات مع الرئيس الصيني ورئيس الوزراء ووزير الخارجية واستضاف عددا من كبار المسؤولين وأرباب القرار السياسي. كانت إجابات هؤلاء جميعا واضحة لا لبس فيها مفادها: "إنه مشكل يخصكم؛ أنتم من تسبب في هذه الفوضى، فإشعال حروب إضافية في أفغانستان جعل الأوضاع تسير نحو الأسوأ، بل إن الأوضاع في باكستان لم تكن سيئة قبل أن تحشروا أنفكم في المنطقة؛ لنا مصالح في المنطقة، غير أن ذلك لا يعني وضع أيدينا في الجمر لإخراج فطيركم من الفرن. إننا سنرعى مصالحنا بطرقنا الخاصة." وباختصار: "أنتم من رتبتم سريركم فعليكم الآن النوم فيه" وعندما انتهوا من حثنا على التراجع، سألوا بطريقة أو بأخرى: "ما هي استراتيجيتكم على كل حال؟"

كانت الحرب في أفغانستان حربا نبيلة (أو حربا حسنة المقصد good war)، أو هذا ما كان يُرَوِّجُ له **أوباما** في حملته الانتخابية. كانت حرب الضرورة (أو حربا دعت إليها الضرورة)، إذ كان لزاما علينا شن حرب في المنطقة لدحر القاعدة وهزيمتها وضمان عدم استقبال أفغانستان للإرهابيين ثانية وحرمانهم نهائيا من ملجأ آمن.[2] اتخذ **باراك أوباما** مسألة الدفع بالحرب في أفغانستان في إطار التكتيك الذي نهجه في حملته الانتخابية حماية لنفسه ودفعا للاتهامات التي عادة ما يُرْشَقُ بها الحزب الديموقراطي بكونه حزبا لينا وغير صارم حين يتعلق الأمر بمسألة الأمن القومي. فرفعه

---

1 James Risen, 'U.S. Identifies Vast Mineral Riches in Afghanistan,' New York Times, June 13, 2010, www.nytimes.com/2010/6/14/world/asia/14minerals.html?pagewanted=all

2 هذا المفهوم أوضحه بشكل جيد ريتشارد هاس في كتاب عن حربيي العراق وأفغانستان:
Richard Hass, War of Necessity, War of Choice: A Memoir of Two Iraq Wars (New York: Simon & Schuster, 2009).

لشعار "حرب الضرورة" يمنحه غطاء للتنديد بـ "حرب الاختيار" (أو الحرب التي اختارتها أمريكا خوضها دون أن تكون مجبرة عليها: أي حرب العراق) والتي كان يتوجب في نظره إنهاؤها.

تَفَهَّمَ الناس موقف **أوباما** على نطاق واسع سواء في الداخل أو الخارج؛ إذ كان وموقفه هذا يعني أن أمريكا ستبذل قصارى جهدها في أفغانستان، أي ما يفيد بصرف أموال إضافية وإرسال قوات أخرى للقضاء على طالبان وبناء دولة ديموقراطية قوية قادرة على الوقوف في وجه الإرهاب.

بعد انصرام أربع سنوات، توقف الرئيس عن الدفاع عن "الحرب النبيلة"، وعوض ذلك بدا متسرعا لنفض يديه من الحرب. حَظِيَ هذا الموقف الجديد بشعبية داخل الولايات المتحدة حيث أن الكثير من الأمريكيين، خاصة أولئك الذين صوتوا لصالح **أوباما** في انتخابات 2008، كانوا يرغبون في إنهاء حرب لا علاقة لهم بها. إذ كان هؤلاء قد تحرروا من وهم عدم الاستقرار الدائم في العراق وأفغانستان وتعبوا من إحدى عشرة سنة من القتال في جبهتين، حيث لم يعد هؤلاء يرون أن الحرب هي الحل الصائب لمسألة الإرهاب بعد أن تخلصوا من الانصياع للتخويف بالإرهاب الذي اعتادت إدارة بوش استغلاله في تأجيج نيران سياستها الخارجية. كما كان هناك إحساس متنام بأن أمريكا ليست لها مصالح حيوية في أفغانستان تبرر وجود قواتها على أرض الميدان.

اعتنق الرئيسُ الأمريكي في البداية فكرةَ السير قدما في حرب أفغانستان إرضاء وتوددا للرأي العام الأمريكي. وعندما تغيرت مواقف هذا الرأي، سارع إلى إعلان الانتصار والدعوة إلى سحب القوات الأمريكية وعودتها إلى أرض الوطن، إذ كانت قراراتُه وأعمالُه محكومة جميعها من البداية حتى النهاية بالسياسات الداخلية التي تقودها وتحدد مسارها، وقد نجحت هذه القرارات على الصعيد الداخلي. أما خارج الولايات المتحدة، فلم يكن هناك أحد، سواء من الأصدقاء أو الأعداء، يصدق القصص التي كنا نرويها عن مبررات أو مصوغات الانسياق في الحرب أولا والتنصل منها ثانية. والحقيقة أننا كنا نغادر أفغانستان ونتركه لمواجهة مصيره وحيدا، بل كنا نغادره في وقت كان فيه "شياطين" المنطقة الذين تسببوا أصلا في الفوضى وساندونا في البداية قد عادوا للظهور ثانية يهددون أمننا القومي.

عندما تسلم الرئيس أوباما مقاليد الحكم، كان عمرُ حرب أفغانستان زهاء ثماني سنوات. فقد ذهبت أمريكا إلى أفغانستان في أكتوبر 2001، أي بعد أقل من شهر على وقوع أحداث الحادي عشر من سبتمبر لتنحية القاعدة والقضاء عليها. وقد عمل الانتصار السريع الذي تحقق في البداية على زرع الآمال ووضع تصورات حول مستقبل مشرق لأفغانستان يخلف حربا أهلية دامت ما ينيف عن العقدين.

تمكَّنت أمريكا بمساعدة دولية من وضع دستور جديد لأفغانستان وتنصيب حكومة جديدة ورئيس جديد؛ رئيس احتفى به الغرب باعتباره شريكا متنورا يساهم إيجابا في جهود إعادة بناء أفغانستان. فقد حظي **حميد كرزاي** بصورة الرجل الأنيق الجريء لطيف المعشر والتقدمي في أفكاره الذي يجسد رغبات أمريكا وأهدافها في تحرير العالم الإسلامي من براثن التطرف. بل إن **توم فورد**، مصمم الأزياء الشهير، أدلى بدلوه واصفا **حميد كرزاي** وصفا متملقا: بأنه "أكثر الناس أناقة على وجه البسيطة."[3]

[3]

في غضون ذلك، كانت جماعات طالبان والقاعدة تنسحب إلى باكستان[4] طلبا لملجأ آمن في منطقة تقع في أقصى الشمال الغربي لباكستان (تعرف اختصارا بـ FATA: المناطق القبلية الواقعة تحت الإدارة الفيدرالية)[5]؛ وهي منطقة جبلية وعرة تقارب مساحتها مساحة ولاية **ماساشوست** الأمـــريكية (27،340 كلم^2) وغير خاضعة كليا للحكم المركزي يقطنها أربعة ملايين من قبائل الباشتون. وهكذا، ففي الوقت الذي كانت فيه أمريكا تسعى إلى تحقيق نظام ديموقراطي يتطلع إلى مستقبل تشكل فيه أفغانستان حصنا منيعا ضد الإرهاب، كانت أمريكا تعمل أيضا وبشكل وثيق مع باكستان على مطاردة القاعدة وملاحقتها في مخابئها في أقصى منطقة FATA. وهكذا ذهبت ملايير الدولارات إلى كل من أفغانستان وباكستان خلال رئاسة **بوش الابن** ليس لدعم جهود محاربة الإرهاب فحسب، بل للدفع أيضا بالديمقراطية وتمدرس البنات والتنمية القروية.

بيد أن هذه الاستثمارات الهائلة فشلت في تحقيق المرتجى منها ولم تؤت أكلها. فقبل تولي **باراك أوباما** رئاسة الدولة بزمن ليس بالقصير، اتخذت الأمور منحى مغايرا. ففي سنة 2006، بدأ العياء يظهر على حكومة أفغانستان وتباطأت وتيرة خطوها حيث لم يعد هناك شك في أن الحرب وعدم الاستقرار قد عادا من جديد. ففي تلك السنة، تضاعف عدد الهجمات التي كان يشنها العائدون من مقاتلي طالبان والقاعدة بنسبة 400 بالمائة، وارتفع عدد الذين قتلوا جراء تلك الهجمات بنسبة 800 بالمائة.[6] وخلال شهر يونيو 2006 وحده فاق عدد القتلى من القوات الدولية الذين ماتوا في أفغانستان عدد من قتل منهم في صراع العراق، أي بمعدل فاق معدلات الشهور الأخرى منذ بداية الحرب.[7] والواقع أن طالبان كانوا يقومون بهجمة شرسة على ما كانوا يرونه احتلالا أمريكيا لأرضهم وعلى حكومة كابول التي يعتبرونها مجرد صنيعة وإمعة.

في سنة 2008 تحولت طبيعة الاقتتال إلى تمرد شامل. وقد اعتادت الإدارة الأمريكية في هذه الفترة على إصدار خرائط أمنية لصالح العاملين في أفغانستان، عبارة عن أدلة ترشد إلى المناطق الآمنة وغير الآمنة باستعمال الألوان لإبرازها: اللون الأخضر للمناطق الآمنة، واللون الأصفر للمناطق التي تعرف مصاعب أمنية، واللون الأحمر للمناطق الخطرة التي تقع تحت سيطرة المتمردين. وفي سنة 2008، أضحى جل بقع هذه الخرائط ملونا بالأحمر. كان معظم الأفغانيين

Judy Hervrdejs, 'Hamid Karzai': The World Most Stylish Man?' Chicago Tribune, January 31, 2002, http://articles.chicagotribune.com/2002-01-31/features/0201310025_1_hamid -karzai-glenn-o-brien-hats

[4]

من الأحداث الحرجة التي وقعت أثناء الانسحاب، نجاح زعماء طالبان، **الملا عمر** وأيضا **أسامة بن لادن**، في الافلات من الفخ الذي نصبته القوات الأمريكية وحلف الناتو في دجنبر 2001 أثناء هجومها على منطقة **تورا بورا** التي تبعد بحوالي ستة أميال عن شمال الحدود بين أفغانستان وباكستان. كان ذلك الافلات علامة تنذر بمستقبل غير سار. وقد نُسب فشلُ اصطياد بن لادن والقبض عليه في تورا بورا ليس إلى إخفاق القيادة العسكرية الأمريكية وعدم قدرة قوات الناتو على العمل الحاسم فحسب، بل نُسب أيضا إلى فشل القوات الباكستانية في مراقبة حدودها وضعف الاعتماد عليها، وربما نسب كذلك لخيانة أفراد من القوات الباكستانية المنتسبين للمنطقة الذين كان من المفترض أن يكونوا حلفاء للولايات المتحدة، غير أنهم انحازوا إلى **ابن لادن** وسهلوا فراره. انظر في هذا الشأن:

Seen Naylor, Not a Good Day to Die: The Untold Story of Operation Anaconda (New York: Berkley, 2005)

[5]

FATA: Federally Administered Tribal Areas

[6]

Seen Naylor, Not a Good Day to Die

[7]

Angela Balakrishnan, 'Afghanistan Troop Deaths Outnumber Those Killed in Iraq,' Guardian, July1, 2008, http://www.guardian.co.uk/world/2008/jul/01/afghanistan.iraq; Ahmed Rashid, Pakistan on the Brink: The Future of America, Pakistan and Afghanistan (New York: Viking, 2012) p. 74.

يعتقدون أن طالبان سائرون لا محالة نحو النصر، وحين يأتي الحديث عن حركات التمرد كان الأهالي يتوقعون ما تمليه عليهم الوقائع الماثلة أمامهم. ففي هذا الصدد روى أحد الملاحظين الغربيين، كان قد عاد للتو من كابول أواسط عام 2008، أن كل الباعة وأصحاب الدكاكين في مدينة كابول ـــــ التي هي أكثر المناطق تحصينا في أفغانستان ـــــ يعتقدون أن مقاتلي طالبان سيقتحمون العاصمة في آخر السنة، إذ كانت أفغانستان تنساق سريعا نحو الفوضى.

كل ما في أفغانستان يشكل تحديا قائما بذاته: طبيعته الجغرافية الوعرة، واجهته الإثنية المعقدة والمحيرة، متاهة بنيته الاجتماعية، نزعاته القبلية الغيورة، وسياساته ذات الطابع البيزنطي، فضلا عن الميراث المر الذي آل إليه من عقود الحرب والاحتلال. لكن أعظم مشكل واجهته دولة أفغانستان كان يجثم في الطرف الآخر من الحدود: باكستان.

كانت جماعة طالبان تتحرك وتنشط خارج منطقة FATA، غير أن زعماءها حطوا الرحال بعيدا في الجنوب في مدينة كويتة (عاصمة بلوشستان من أقاليم باكستان)، حيث استغل هؤلاء الأمن النسبي الذي تنعم به المدينة لتجميع قواتهم وإدارة التمرد في أفغانستان. ومن المعلوم أن قادتهم كانوا يجندون المقاتلين المشاة من طلبة المدارس القرآنية المنتشرة في أرجاء مناطق الباشتون الباكستانية، حيث أقاموا معسكرات التدريب والمستشفيات ومصانع المتفجرات اليدوية في المدن والقرى التي كانت على مرمى حجر من التخوم الأفغانية.

وفوق هذا وذلك، فمنذ أن تأسست حركة طالبان سنة 1994، حافظت حركة التمرد هاته على علاقات وثيقة مع وكالة الاستخبارات الباكستانية حيث كانت تتلقى من إسلام آباد الدعم المالي والتدريب العسكري. ذلك أن الدعم الباكستاني هو الذي ساهم في استمرار هجمات طالبان طيلة عقد التسعينات من القرن الماضي، مع التأكيد على أن هذه العلاقة لم تنقطع بل ظلت قائمة حتى بعد الهجوم الأمريكي على معاقل طالبان في أفغانستان.

كانت باكستان تعتبر طالبان معطى استراتيجيا يُبْعِدُ الهندَ عن أفغانستان ويبقيها تحت مراقبتها ونفوذها. وهذا ما جعل من التمرد الأفغاني مشكلا إقليميا. وإذا كان من الصعب محاربة التمرد عموما، فما بالك بتمرد يحظى بملجأ آمن ينسحب إليه مقاتلوه عند الضرورة، وينعم بحماية ساكنة تتعاطف معه وبدعم مالي وعسكري ومعلومات استخباراتية من بلد مجاور، فآنذاك يصبح التمرد دون ريب تحديا على قدر عظيم من حيث الحجم والتوسع. كان بإمكان طالبان والقاعدة خوض القتال في أفغانستان، لكن حين تستعر نار المعركة كان بإمكان مقاتليهم الهرولة نحو الجنوب وعبور الحدود إلى مكان يضمدون فيه الجراح، ويجندون مقاتلين جدد ويخططون لمزيد من الحرب والاقتتال. والواقع أن الزعامة الجماعية لطالبان أضحت تعرف لدى عامة الناس بمجلس "شورى كويتة" نسبة إلى المكان الذي يجتمع فيه أعضاؤها. وهكذا بدأ القتال في أفغانستان يتخذ منحى مخيفا شبيها بمنحى حرب فيتنام، حيث كانت باكستان تقوم بدور قريب من الدور الذي كانت تقوم به دول لاوس وكمبوديا والصين الماوية مجتمعة. ذلك أن الحرب في أفغانستان كانت آخذة في التحول إلى شكل جديد باهظ الكلفة يستدعي انتباها شديدا ويقتضي عملا مستعجلا.

حين استقر الرئيس **باراك أوباما** في البيت الأبيض، كانت حركة طالبان آنذاك تمثل قوة ماحقة يبدو من الصعب إيقافها أو الوقوف في وجهها. ذلك أن الحركة اتخذت بنية مرنة وغير ممركزة ترتبط بزعامتها في باكستان إلا أنها منظمة تنظيما محليا. كما تمتعت أيضا ببنية سياسية وطنية مترسخة وبوجود حكام في الظل وبزعماء مقاطعات في جل أرجاء

البلاد. وهذا لا ينفي أن حضورها كان اسميا فقط في بعض المناطق ـ ذلك أن حركة طالبان هي ظاهرة خاصة كليا بقبائل الباشتون لا يمتد نفوذها إلى كل ركن في أفغانستان متعدد الإثنيات ـ غير أن ذلك لا ينفي بأي حال من الأحوال حضور سلطتها في المناطق الأخرى.

كانت حركة طالبان تتمتع بقوة لا تتناسب مع أعداد أفرادها. ففي سنة 2009 قدرت الحكومة الأمريكية أعداد مقاتلي طالبان في رقم لا يزيد عن 35،000 مقاتل، في وقت كانت فيه النواة الصلبة للحركة تتشكل من 2،000 مقاتل فقط، هم من شاركوا في حروب أفغانستان السابقة واشتد عودهم ومراسهم في القتال. بينما كان عدد كبير، ما بين 5،000 و10،000 مقاتل، يخوضون الحرب إما انتقاما لانتهاكات الحكومة الأفغانية وخروقاتها، وإما انتقاما لمقتل ذويهم وعشيرتهم جراء قصف الطيران الأمريكي. أما العدد الأكبر، زهاء 20،000 مقاتل أو يزيد، فكان من مرتزقة يسترزقون من الحرب مقابل بضعة دولارات في اليوم.

أضحت حركة طالبان معروفة أكثر بذكائها السياسي وقوتها العسكرية المدمرة.[8] لقد ولى زمن تحريم الصور والموسيقى، الذي كثيرا ما استغل في الشرائط المرئية التي كانت تذيعها الحركة لتجنيد المقاتلين. فقد أخذت بلاغات حركة طالبان في صورتها الجديدة تدعي بأنها حركة متفتحة لا تمانع في التحاق الفتيات بالمدارس. أما بتر اليد وقطع الرأس بحد السيف أمام الملأ فقد جرى طرحهما جانبا.

هناك معتقدات أخرى تم طرحها جانبا أيضا. فقد كتب الصحفي **ستيف كول** سنة 2008، وهو رجل قد خبر أوضاع أفغانستان لفترة طويلة: عندما كان المجاهدون الأفغان يحاربون السوفيات ويقاومون احتلاله، كانت وكالة الاستخبارات المركزية (CIA) تبحث جاهدة عن شخص يفجر سيارة مفخخة في نفق سالنج (تونل سالنـگ باللغة الأردية) الذي يبلغ طوله 1,6 ميل. كان النفق حلقة وصل محورية يربط الشمال بالجنوب حيث يقطع النفق مسافة مهمة تحت ممر جبلي وعر من سلسلة جبال كوش الهندية؛ ومن ثم فإن من شأن تفجيره قطع طريق الامدادات السوفياتية. ولكي تكون العملية فعالة وبالغة التدمير، كان من الضروري تفجير السيارة في منتصف النفق، مما يعني الموت المحقق لسائقها. والواقع أن وكالة الاستخبارات المركزية كانت تبحث عن شخص انتحاري من الأفغان.[9] لكن لم يتطوع أحد منهم للقيام بالعملية. فقد كان الأفغان يقولون آنذاك إن الانتحار ذنب عظيم تحرمه معتقداتهم الدينية. والغريب أنه بعد مرور فترة ليست بالطويلة، شهدت أفغانستان سنة 2009 ما يزيد عن 180 حالة تفجير انتحاري.[10] لقد تطورت حركة طالبان على نحو جعل من أفغانستان مكانا أكثر خطورة مما كان عليه.

8

Antonio Giustozzi, Koran, Kalashnikov, and Laptop: The Neo- Taliban Insurgency in Afghanistan 2002-2007 (New York: New York University Press, 2009).

9

Steve Coll, Ghost Wars: The Secret History of the CIA, Afghanistan and Bin Laden, from the Soviet Invasion to September 10, 2001 (New York: Penguin, 2004), p. 134.

10

Ian S. Livingston and Michael O'Hanlon, Afghanistan Index: Tracking Variables of Reconstruction and Security in Post-9/11 Afghanistan (Washington, DC : Brookings Institution, January 30, 2012), p. 18, http://www.brookings.edu/-/media/files / Programs/FP/afghanistan %20index/index.pdf.

قام الرئيس **أوباما** بعد مرور فترة جد قصيرة على تسلمه مقاليد الرئاسة، باختيار **ريتشارد هولبروك** ليكون رجله في أفغانستان يساعده في تقييم الوضع في ذلك البلد ويوافيه على جناح السرعة باستراتيجية للتعامل مع الوضع القائم هناك. وفي غضون ذلك، كانت القيادة العسكرية تستعجل الرئيس الجديد وتسعى جاهدة عبر اللوبي العامل لحسابها للحصول على قوات إضافية هي في حاجة إليها لتعزيز صفوف الجيش في مواجهة طالبان؛ أي الحصول عليها في الوقت الذي تكون فيه واشنطن منكبة على التفكير في المشكل واستعراض حيثياته. كان **أوباما** يرغب في مراجعة سريعة للاستراتيجية المتبعة وقراءة سريعة للوضع، فوقع اختياره بسرعة على **بروس ريدل**، الذي سبق أن عمل خبيرا لدى وكالة الاستخبارات المركزية ومستشارا لدى إدارة **بيل كلينتون** مختصا في شئون باكستان، ليقوم بالمهمة.[11] استغرقت المراجعة ستين يوما، وخلصت نتيجتها (التي أضحت تعرف على نطاق واسع بـ: **تقرير ريدل**) إلى التأكيد على ضرورة زيادة أعداد القوات الأمريكية في أفغانستان، وتزويد الموارد الخاصة بعمليات محاربة التمرد تزويدا شاملا، إضافة إلى التعامل بصرامة مع باكستان. لم يكن **هولبروك**، الذي عمل ضمن لجنة **ريدل**، موافقا على ما خلص إليه التقرير، إذ كان يعارض الرأي القائل بتعهد أمريكا الداعي إلى تعزيز موارد قمع التمرد؛ وفي المقابل كان يرى أن بإمكان أمريكا كسب الكثير من انسحابها من أفغانستان أكثر مما يمكن أن تكسبه من الارتباط بالتزامات هناك.

قابل **ريدل** الرئيس **أوباما** بمفرده ليطلعه على نتائج اللجنة. ويعتقد **هولبروك** في صدد هذا اللقاء، أنه كان يتوجب على الرئيس الاستماع إلى أكثر من شخص واحد. إذ كان يرى أن غياب نقاش حقيقي حول التقرير والتوصيات التي خلص إليها جعل الرئيس يتحرك بسرعة في مسار تعميق الحرب.

أعلن الرئيس **أوباما** في شهر فبراير 2009 عن قراره بإرسال 17،000 جنديا إضافيا إلى أفغانستان حيث منحه ذلك هو ومستشاريه وقتا كافيا لتحديد مسار الخطوات التالية. وبعد وقت وجيز، طلب الرئيس من القائد العام للقوات الأمريكية في أفغانستان، الجنرال **ستانلي ماك كريستال**، القيام بمراجعة استراتيجية للحرب وتقديم الخطوط العريضة لما هو ضروري فعله لتحقيق النصر فيها. [12] وبينما كان الجنرال **ماك كريستال** منهمكا في تحضير المراجعة، كان مجلس الأمن القومي الأمريكي (NSC) يقوم بدوره بتجميع المعطيات الخاصة بكل الوقائع والأرقام والآراء والتحاليل وغيرها من المؤسسات الحكومية (جل هذه المعطيات كان يؤخذ من البنتاغون ووزارة الخارجية ووكالة الاستخبارات المركزية والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية U.S.A.I.D). أما الغاية المتوخاة من كل هذا، فهي طرح مجموعة من الآراء الجلية والخيارات الواضحة أمام الرئيس يمكنه الاختيار منها.

كانت إدارة **أوباما** تواجه مشكلا مربكا وعويصا ذا وجهين. ففي الوقت الذي كانت فيه حركة طالبان تعيد تجميع قواتها وتنمو نموا هائلا، كان شريكنا المحلي، المتمثل في **كرزاي** وحكومته، يبين يوما بعد يوم عن ضعفه وعدم ملاءمته للقيام بمهمة بناء نظام ديموقراطي.[13] فقد بهتت الصورة المشرقة التي رسمت **لحميد كرزاي** وخبا بريقها زمنا قبل تولي

---

11 Bob Woodward, Obama's Wars, (New York: Simon & Schuster, 2010), pp. 88-90.

12 Rajiv Chandrasekaran, Little America: The war Within the War in Afghanistan (New York: Knopf, 2012).

13 أورد راجيف شاندراسيكران في مؤلفه السالف الذكر تحليلا ضافيا عن فساد كرزاي وحكمه السيء.

أوباما الرئاسة. فالفكرة التي سادت فترة لدى العاملين في الإدارة الأمريكية وأعضاء الكونغرس عن الرجل الذكي الأنيق في ملبسه والزعيم المتنور الذي يقود أفغانستان الجديدة، تغيرت على نحو ما لِيَصْغُرَ شأنُ الرجل في أعينهم ويصبح مجرد فاسد مرتش وشريك غير أهل للثقة أو الاعتماد عليه، ولعل في ذلك سببا رئيسا يفسر نجاح حركة طالبان. مهما كانت الصورة التي كان يجب أن تكون عليها أفغانستان الجديدة، فإن الواقع القائم فعلا كان مغايرا تلعب فيه العشائر والأسر الممتدة دورا مهما. ومما يؤسف له، أن عشيرة **كرزاي** كانت تشبه إلى حد كبير أسرة من أسر المافيا ـــــــ كأسرة **سوبر انو** الشهيرة. **فأحمد ولي**، أخ الرئيس، كان في الواقع "وسيطا يدبر الرشاوى وتجارة المخدرات من **قندهار** معقل طالبان، حيث كان يعمل على نحو مشين مع وكالة الاستخبارات المركزية ومع طالبان في آن واحد، وله يد في كل صفقة وفي كل نزاع أو خصومة سياسية في تلك المدينة المتمردة. **وحميد كرزاي** ذاته كان يرأس عددا هائلا من الكبراء والأعيان المحليين ذوي الصلة بتجارة المخدرات، حيث كان هؤلاء يدعمون حكمه ويساندونه مقابل ما يُتاح لهم من فرص لملء جيوبهم في الوقت الذي يستغلون فيه الساكنة المحلية ويسيئون معاملتها.[14]

كان العاملون في المساعدة الإنسانية وأعضاء الكونغرس وعامة الأفغان بل وعامة الأمريكيين جميعهم على حد سواء مستائين ومحبطين مما يجري. غير أن مسألة الفساد لم تفهم على وجهها الصحيح. بالفعل كان هناك هدر وابتزاز واختلاس ملايين الدولارات. إلا أن الصحيح أيضا هو أن المجتمع الأفغاني كان ولا يزال مجتمعا قبليا يرى زعماءُ قبائله وأعيانُه المحليون أن من حقهم بل من واجبهم الأخذ من موارد الدولة وتحويلها لصالح جماعاتهم. وكان **كرزاي** في حاجة إلى تلبية طلبات هؤلاء ليضمن بقاءه متربعا على هرم السلطة. ومعلوم أن هذا الصنف من الفساد ليس بالغريب عن عالم السياسة، والأكيد أنه غير مقتصر على أفغانستان وحدها.[15]

هل كان لفساد **كرزاي** علاقة بالمد والجزر الذي تعرفه حركة التمرد؟ الجواب نعم كانت له علاقة لكن ليس بالطريقة التي قد تخطر على بالنا لأول وهلة. فليس هناك دليل واحد بثبت أن معظم من التحقوا بحركة طالبان قد فعلوا ذلك احتجاجا على فساد وزراء **كرزاي**؛ فالمشكل كان محليا. فالفساد الذي له يد فعلا في إثارة غضب صغار الفلاحين وحملهم على حمل السلاح واللحاق بصفوف طالبان، هو ابتزاز الشرطة المحلية والمسئولين الحكوميين المحليين. إننا نتعامل مع **كرزاي** كما لو كان رئيسا لحكومة مستقلة كاملة السيادة، والواقع أنه لا توجد هناك حكومة إطلاقا. كان **كرزاي** متخندقا في العاصمة يعتمد أساسا على الحماية الأجنبية لضمان سلامة شخصه، بينما كانت التعليمات الصارمة الصادرة إليه تقتضي منه عدم القيام بأي شيء دون مساعدة الولايات المتحدة. كان **كرزاي** ولا يزال مجرد "عمدة شرفي" لمدينة كابول.

14

المصدر ذاته.

15

Sheri Berman, 'From Sun King to Karzai: Lessons for State Building in Afghanistan,' Foreign Affairs, March/April 2010, http://www.foreignaffaires.com/articles/65984/sheri-berman/from-the-sun-king -to-karzai.

وانظر مناقشة واسعة للموضوع في مؤلف فرنسيس فوكوياما:

The Origins of Political Order: From Prehuman Times to the French Revolution (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2011), pp. xi-xiii.

كانت حكومة **كرزاي** موضوعة بطريقة سيئة. فحسب ما هو مسطر على الورق، كانت حكومة بالغة التمركز ـ أي حكومة مركزية تتحكم في الموارد المالية وتتخذ كل القرارات الخاصة بالتعليم والصحة والتنمية وغيرها من المجالات. غير أن الواقع العملي كان غير ذلك، فحكومة **كرزاي** كانت غائبة عن مناطق شاسعة من البلاد، وعندما تكون حاضرة في مكان ما، فإن حضورها غيرُ مرحّب به يتمنى الساكنة زواله ورحيله.[16]

كان اقتصاد أفغانستان بدوره مدمرا في حال من الخراب. فالبنية التحتية متقادمة غير صالحة والصناعة منعدمة والفلاحة تكاد تواجه الفقر المستوطن في البوادي. إذ تمثل اقتصاد البلاد أساسا فيما تدره تجارة المخدرات مع ما يضاف إليها من الأموال الدولية التي تصرف في الإعانات والعمليات العسكرية التي تحوم في المنطقة.[17]

كان الأفغان يرجعون سبب الحالة المأساوية التي آل إليها اقتصاد بلادهم إلى الإخفاقات المتتالية التي راكمها **كرزاي**، وينحون باللائمة عليه وعلى أمريكا التي تدعمه. ومن ثم فقد كانت أعداد منهم تتكاثر يوما بعد يوم وتمد يد المساعدة لطالبان حتى يعودوا ثانية إلى البلاد.[18] والملاحظ أن الأوضاع كانت أكثر سوءا على الخصوص في معاقل قبائل **الباشتون** جنوب أفغانستان التي اتخذتها حركة طالبان قاعدة حصينة لها في عقد التسعينات من القرن الماضي. ذلك أن قبائل الباشتون في جنوب المنطقة كانت تشعر بأنها مقصاه من طرف حكومة **كرزاي** وترى أن **اتفاق بون** المبرم سنة 2001 (اتفاق مثل حصيلة مؤتمر عقد برعاية دولية للتقرير في شأن ما سيكون عليه دستور أفغانستان وحكومتها) حابى أعداءها: أي قبائل **الأزبك والتاجيك** و**هزارا** المنضوية تحت تحالف الشمال. كما كانت قبائل الباشتون هاته تعتقد أنه على الرغم من تحدر **كرزاي** من قبيلة باشتونية، قبيلة **دوراني**، غير أنه لم يفعل سوى القليل لمعالجة قضاياها ورعاية مصالحها. فشعور الكثير من رجال هذه القبائل بالحرمان من المشاركة السياسية، حملهم على وضع كل الرهان على طالبان.

كانت إدارة **أوباما** إثر قراءتها الأولية للأزمة الأفغانية، تنحي باللائمة أساسا على الفشل الذريع لحكومة **كرازاي** الذي تساوق مع سوء تدبير الاستراتيجية العسكرية وعدم كفاية أعداد الجنود لدحر حركة التمرد، وأيضا على قدرة حركة طالبان في الحصول على ملجأ آمن في باكستان ودعم هذه الدولة العسكري والمادي. والخلاصة من كل هذا، أن الإخفاقات التي راكمها **كرزاي** والحاجة إلى تقويم الاستراتيجية العسكرية كانت تهيمن على النقاش الدائر في واشنطن حول الأزمة الأفغانية. وفوق هذا وذاك، فقد كان ينظر إلى الصراع في أفغانستان من منظور سياق العراق. إذ كان ينظر إلى طالبان على أنهم متمردون يشبهون أولئك الذين ساهمت الولايات المتحدة في دحرهم في العراق. أما الأمر الذي

16

Thomas Barfield, 'Afghanistan's Ethnic Puzzle,' Foreign Affaires, September/October 2011, http://foreignaffaires.com/articles/68204/Thomas-barfield/Afghanistan-ethnic-puzzle.

17

Gretchen Peters, Seeds of Terror: How Drugs, Thugs and Crime are Reshaping the Afghan War (New York: Thomas Dunne Books, 2009); Alisa Rubin, "War on Afghan Opium Yields Few Victories," New York Times, May 28, 2012, p.46

18

Antonio Giustozzi, Decoding the Taliban: Insights from the Afghan Field (New York: Columbia University Press, 2009).

ساهم في دحر التمرد في العراق، فهو الاستراتيجية العسكرية لقمع التمرد المعروفة اختصارا لدى العسكريين بـ COIN.

لم تكن هذه الاستراتيجية المختزلة في COIN بالجديدة حيث جرى اختبارها في الماضي، فقد تبناها البريطانيون في محاربة ثوار **البوير** في جنوب إفريقيا في مطلع القرن العشرين وتبنوها ثانية في ماليزيا في عقد الخمسينيات من القرن الماضي. كما استخدم الفرنسيون صيغة منها في الفترة ذاتها تقريبا في الجزائر دون نجاح كبير. إضافة إلى أن الأمريكيين أنفسهم جربوها في فيتنام حيث جاءت بنتائج كارثية. مبدئيا، تقر هذه الاستراتيجية بأن الجماعات الثائرة لا تنتظم دائما في وحدات عسكرية نظامية ولا تتشبث بأرض معينة. ذلك أن المتمردين عادة ما يتفادون البقاء في نقط ثابتة ويفضلون الاختباء بين الناس الذين يمتنعون عن الإفشاء بسرهم للعدو. وبناء على ذلك، فإن التمرد ينتصر بسبب السيطرة على الناس. أما المركز المحوري لحركة التمرد فلا يكون في موقع يمكن تحديده على الخريطة، بل يكون في قاعدة متمثلة في ساكنة متعاطفة (أو على الأقل ساكنة جبانة).

وبناء على ما ذكرناه، فإن دحر التمرد يتطلب أولا طمأنة السكان وضمان أمنهم. فمن الضروري حماية السكان المعنيين من عنف المتمردين وكسب ثقتهم. فآنذاك فقط سيرغب هؤلاء في الوقوف في وجه التمرد ويمدون يد المساعدة في القضاء عليه. وهكذا يمكن اختصار مفاتيح استراتيجية قمع التمرد في: 1) وحدات صغيرة على معرفة بالجوانب الاجتماعية والسياسية؛ 2) معرفة بالثقافة المحلية ولسانيات المنطقة؛ 3) علاقة حسنة مع المدنيين الذين يشكل ولاؤهم أفضل مكسب في قمع التمرد.

أما فيما يخص قمع التمرد في العراق، فقد انتشرت القوات الأمريكية في مقاطعات محافظة **الأنبار** وقراها حيث أقامت مراكز مراقبة صغيرة مكنتها من تسيير دوريات لضمان الأمن والإدارة على الصعيد المحلي وكذا سمحت لها من تضييق الخناق على المتمردين وإخراجهم من كل قرى ومدن ومقاطعات هذه المحافظة الحرون والمستعصية.[19] وبالفعل نجحت تلك الاستراتيجية. فكلما تحررت المناطق من سيطرة المتمردين، إلا وتمكن زعماء الجماعات المحلية من بسط سيطرتهم والعمل جماعيا يدا في يد إلى أن شكلوا في النهاية ما أضحى يعرف بـ أبناء العراق. إذ تمكن هؤلاء من الهيمنة على السياسة المحلية وتحقيق الأمن، وتمكنوا أيضا بفضل المساعدة المالية الأمريكية من إعادة بناء الاقتصاد المحلي. والملاحظ أن هؤلاء الزعماء حظوا في البداية بحماية القوات الأمريكية، غير أن حمايتهم آلت في النهاية إلى قوات الأمن العراقية المدربة من قبل الأمريكيين، التي عملت على ضمان الأمن ومساعدة الزعماء المحليين في التخلص من المتمردين.

حالف النجاح استراتيجية قمع التمرد العسكرية (COIN) التي تبناها الأمريكيون وتُوجت بانتصارهم في حرب غير متوازنة ضد الإرهابيين والقبائل وأيضا ضد ما أضحى يعرف بـ "المليشيات المقاتلة في الدول الفاشلة أو التي هي في

19

للاطلاع على نقاش شامل لهذا الموضوع، انظر:
Kimberly Kagan, "The Anbar Awakening: Displacing al-Qaeda from its Stronghold in Western Iraq," Iraq Report, Institute for the Study and WeeklyStandard.com, August 21 2006-March 30 2007, http://understandingwar.org/sites/default/files/reports/iraqReport03.pdf.

طريق الفشل". ومن ثم فإن ملاءمة حال العراق لها وتطابقها مع حال أفغانستان بدا جليا في غير حاجة لإثبات. فإذا كانت استراتيجية قمع التمرد قد نجحت في العراق، فإنها الاختيار الصائب لتطبق في أفغانستان.

غير أن استراتيجية قمع التمرد تتطلب الحكامة الجيدة، والحكامة تتطلب وجود حكومة. بينما لم تكن حكومة أفغانستان تتوفر على الوسائل (أو لم تكن لديها الرغبة والإرادة) لتسير في خطى المارينز (مشاة البحرية الأمريكية) وتتبعهم إلى المناطق التي يجري إخلاؤها من طالبان وتقيم فيها حكامة، ومن ثم فلم يكن بإمكان استراتيجية قمع التمرد السير بعيدا في هذا البلد. كان منتظرا أن يكون الرئيس **كرزاي** إجرائيا على نحو خاص في تحقيق آمال الأمريكيين ويحمل إليهم أخبار طيبة من أفغانستان. في أواخر سنة 2009، كانت واشنطن ما تزال تأمل في أن تغير من سلوك كرزاي وتجعله أكثر إجرائية وفعالية. لكن إن خاب أملها فيه، فإن من شأن الانتخابات الرئاسية الأفغانية المقبلة سنة 2009، أن تحمل إلى الرئاسة شريكا أفضل منه.

أبانت مراجعة الاستراتيجية عن أنها عمل مُضْن يحتاج إلى وقت ونفس طويلين. ففي هذا الصدد، اجتمع الرئيس **أوباما** بفريق الأمن القومي عشر مرات خلال ثلاثة أشهر (خمسة وعشرون ساعة من العمل) جرى أثناءها الاستماع للتحاليل ومناقشة المعطيات. واجتمع مستشارو الرئيس مع فرق عملهم، دون حضور الرئيس، للتعمق في الموضوع ودراسة القضايا ذات الصلة وقراءة أكوام من الملفات، كل ملف منها في حجم دليل التلفون، وكل ذلك بغية الإجابة عن الأسئلة القادمة من الأعلى. وكنا في مكتب المبعوث الخاص لأفغانستان وباكستان (المعروف اختصارا بـ SRAP) نعمل على إعداد مساهمة وزارة الخارجية المستخلصة من هذا الكم الهائل من الأوراق. كنا نقضي الساعات الطوال في إعداد المذكرات والكتب البيضاء[20] والخرائط والجداول وتلخيصها. وفي الوقت ذاته، كان البنتاغون ووكالة الاستخبارات المركزية يعدان بدورهما المذكرات الخاصة بهما. والواقع أن هذه الوكالات كانت تتنافس فيما بينها تنافسا شريفا حول أي منها يقوم بأفضل عمل وينتج أكثر من غيره.

ذات مرة ونحن في المراحل الأولى من هذه العملية، كان **هولبروك** قد عاد للتو من اجتماع في البيت الأبيض استدعانا على إثره إلى مكتبه ليطلعنا على آخر المستجدات. قال لنا في هذا الاجتماع بالحرف الواحد " قمتم بعمل جيد، وكاتبة الدولة في الخارجية (**السيدة كلينتون**) راضية عن المادة التي قدمتها، غير أنها ترغب في ملفات يضاهي حجمها حجم ملفات **روبرت غيتس** (كاتب الدولة في الدفاع). فهي ترغب في خرائط وجداول ورسوم بيانية ملونة" ثم استأنف "**السيدة كلنتون** لا ترغب في أن يهيمن **غيتس** على النقاش وهو يلوح بخرائطه ورسومه البيانية الملونة أمام الجميع". "لا أحد يقرأ هذه الملفات لكن الجميع ينظر إلى الخرائط والرسوم البيانية الملونة." ظل جميع من حضروا في مكتبه يحدق فيه. أثناءها سألته من يقرأ هذه الملفات؟ وأنا أشير إلى ملف ضخم موضوعا على طاولة مكتبه. أجاب "سأخبرك بمن يقرأها." "الرئيس يقرأها، فهو يقرأ كل ملف."

كان حجم الساعات التي صرفت في هذه العملية كما لو كان قد أنفق عبثا. فكل مرة يعود فيها **هولبروك** من اجتماع في البيت الأبيض يقول لنا "إن لدى الرئيس أسئلة أخرى" ثم يحذرنا بأن علينا الالتزام حرفيا بالتعليمات التي تأتي من

---

20 White papers : أو الكتب البيضاء عبارة عن تقارير ضافية ذات سلطة معرفية تقدم لصانعي القرار حتى يتفهموا قضية ما ويتخذون قرارا في شأنها. (المترجم)

البيت الأبيض. وفي كل مرة تتعثر فيها العملية، كان الإحباط يبدو جليا على جبيني **هولبروك** والسيدة **كلينتون**. كان البيت الأبيض يعزو هذا التعثر للتدقيق الشديد الذي يحرص عليه الرئيس **أوباما** وإلى التفكير والتحليل العميقين اللذين واكبا اتخاذ هذا القرار التاريخي. غير أن القلق بدأ يساور عددا كبيرا من المشاركين والملاحظين من أن إرجاء القرار لا يخدم مصلحة الولايات المتحدة. والواقع أن الرئيس في هذه المرحلة كان عصبيا ومترددا، يستحث العاملين في مجلس الأمن القومي في الإجابة على جملة من الأسئلة الإضافية التي يطرحها في كل مرة بطريقة مختلفة.

كان **هولبروك** يرى أن سبب عدم اتخاذ الرئيس لقرار في هذا الشأن يرجع إلى عدم رضاه عن الخيارات التي تطرح أمامه، حيث أن مجلس الأمن القومي خذل الرئيس بعدم تمكينه من الخيارات الصائبة. فمهمة المجلس في نظره لا تتمثل في وضع السياسة للرئيس بل في تمكينه من الخيارات المتاحة. ولذا فإن عدم قيام المجلس بعمله أدى بالتالي إلى عدم قيام الرئيس باتخاذ القرار. فعملية صنع القرار في نظره أصابها العطب. ولكي يثبت **هولبروك** رأيه ويعززه كان يوزع نسخا من المذكرة التي أعدها **كلارك كليفورد** سنة 1999 عن كيفية اشتغال مجلس الأمن القومي (كان **هولبروك** قد ساهم في إعدادها، وقد نشرت في كتاب يحمل عنوان مشورة للرئيس Counsel to the President).

غير أن ما فات **هولبروك** ولم يشر إليه في تقييمه هو فشل **أوباما** في الضغط على مجلس الأمن القومي لتزويده بخيارات أخرى. ونتيجة لذلك، تدنت سرعة العملية إلى مستوى جعل الرئيس يتراجع ويحشر نفسه في الخيارات المطروحة أمامه دون أن يطلب الحصول على خيارات أخرى، بينما كان العاملون في مجلس الأمن القومي يدأبون مرة بعد أخرى على طرح نفس الخيارات أمام الرئيس.

في نهاية المطاف كان أمام الرئيس خياران متمايزان. الأول: إعادة تزويد الموارد تزويدا كليا، مما يعني مزيدا من الفرق العسكرية ومزيدا من أموال تُعبأ لدفع طالبان وحملهم على التقهقر والانسحاب من الأراضي التي استولوا عليها والتخلي عن المكتسبات التي حققوها، وأيضا لتكوين قوات أمنية محلية وتأسيس حكومة جيدة تجعل من غير المحتمل عودة طالبان ثانية.[21] كان هذا الخيار عبارة عن إعادة تمثيل لما جرى في العراق. غير أن الرئيس لم يستسلم بسهولة. فلم يكن يرى أن حملة قمع تمرد ـــــ طويلة المدى وباهظة الكلفة ـــــ هي الطريق الأسلم الذي يجب سلوكه، خاصة وأن مستشاريه في الشأن القومي (أو الداخلي) كانوا يخبرونه بأن الدعم الشعبي للحرب أضحى ضعيفا (بل ومرشحا لمزيد من الضعف)، وخاصة أيضا أن أخبارا سيئة كانت تتواتر حول تدهور اقتصاد البلاد. لذا كان **أوباما** يتمهل ويقلب الأمر على وجوهه ويعيد النظر في تزويد موارد استراتيجية قمع التمرد بطرح مزيد من الأسئلة. أما جواب القيادة العسكرية، فكان جوابا ثابتا لا يتغير في كل مرة يسألون فيها: إعادة تزويد موارد قمع التمرد هي الطريق الأنسب الواجب سلوكه.

21

انظر في شأن كيفية اشتغال هذه الاستراتيجية في مؤلف مايكل أو هانلون الذي أفاض في وصفها:
Michael O'Hanlon and Hassina Sherjan , Toughing It Out in Afghanistan (Washington, DC: Brooking Institution, 2010).

في الليلة التي سبقت تقديم الجنرال **ماك كريستال** لتقريره الذي يضع الخطوط العريضة لما هو متطلب لتدبير الحرب، استدعى **هولبروك** فريق عمله لاجتماع في مكتبه. سألناه عما يتوقعه من تقرير **ماك كريستال** وماذا سيطلب فيه. قال وهو يلوح بيده عاليا: "انظروا! سيطرح العسكريون أمام الرئيس ثلاثة خيارات. سيكون من بينها خيار عالي الخطورة (high risk)." أو هذا ما تعودوا على تسميته في حال تدني أعدد الجنود: فرق عسكرية قليلة تساوي خطورة عالية. وسيكون من بينها خيار منخفض الخطورة (low risk)." ثم أنزل يده إلى الأسفل متابعا "أي خيار يستدعي مضاعفة أعداد الجنود، وهو ما يتطلعون إليه. وفي النهاية سيكون هناك خيار وسط." يتمثل في إرسال ما بين 30000 و40000 جندي إضافي. وهذا ما حصل بالفعل تماشيا مع المصطلحات العسكرية: خطورة عالية وخطورة منخفضة.

أثناء هذا النقاش، كان نائب الرئيس جو **بايدن** يدافع عن مقاربة أخرى تشكل من جهتها خيارا آخر. مبدئيا، يلاحظ **بايدن** أننا ذهبنا إلى أفغانستان بهدف محاربة القاعدة، غير أن القاعدة لم تعد موجودة في أفغانستان، بل هي الآن في باكستان. فوكالة الاستخبارات المركزية قدرت في تلك الفترة عدد المتبقين في أفغانستان من مقاتلي القاعدة في حدود مائة مقاتل.[22] كان **بايدن** يظن أنه مع مرور الزمن حادت المهمة وزاغت عن سكة أهدافها الأصلية التي وضعت لها. ذلك أن محاربة الإرهاب (المتمثلة، حسب المهمة التي حددها الرئيس، في تدمير القاعدة والمنتسبين إليها وتفكيك قواعدهم وعرقلة حركتهم) تحولت إلى استراتيجية قمع التمرد وبناء الدولة، حيث عوضت حركة طالبان القاعدة في موقع العدو الذي رتبنا أهدافنا الاستراتيجية لمحاربته. **فـ بايدن** يحاج بأننا لسنا في حاجة إلى استراتيجية قمع التمرد (COIN) أو لبناء دولة إجرائية في أفغانستان أو لإنفاق ملايير الدولارات للتنمية القروية وتحقيق الأمن فيه حتى نسكن روع الأمريكيين ونبدد خوفهم من القاعدة. والواقع أننا في غنى تام عن أفغانستان. يمكننا حماية أنفسنا والدفع بمصالحنا عبر تعبئة الجهود ضمن استراتيجية محاربة الإرهاب مكثفة (أضحت تعرف اختصـــارا بـ CT-Plus) توجه فيها الضربات إلى ملاذ القاعدة في مناطق الحدود الوعرة بين باكستان وأفغانستان، حيث يمكننا استعمال الطائرات غير المأهولة (طائرات درون)، والفرق الخاصة لمراقبة نشاط القاعدة وتحركاتها انطلاقا من قواعدنا في باكستان لتحقيق الأمن الذي نسعى إليه أو ما نحن في حاجة إليه مقابل قسط ضئيل من الأموال وقليل من القوة البشرية التي تطلبها استراتيجية قمع التمرد.

فضل **بايدن**، في الحجج التي ساقها، إعادة تزويد وكالة الاستخبارات المركزية عوض تزويد البنتاغون، ومن ثم فقد كان ينظر إليه على أنه رجل بعيد كل البعد عن الواقع بسبب الإغراق في الافتراض بأن كسب المعركة يمكن أن يتم دون وجود قوات عسكرية في أرض الميدان. بيد أن رأي **بايدن** كان يحظى بدعم حقيقي من مساندية في الكونغرس ومن بعض مستشاري الرئيس في الشئون القومية (الداخلية) ذوي الحس البراغماتي ممن كانوا يرون أن الشعب الأمريكي قد تعب من الحرب. كان **هولبروك** بدوره يعتقد أن استراتيجية قمع التمرد تافهة وغير ذات أهمية. كما كان يرى أنه لا يمكن بناء استراتيجية على أساس "الحرب السرية" وحدها. في حين أن طائرات درون لا يمكن أن تحل محل التسوية السياسية.

---

22 "President Obama's Secret: Only 100 al-Qaeda Now in Afghanistan,"

كانت هناك انتقادات أخرى توجه إلى استراتيجية قمع التمرد (COIN). ففي شهر نوفمبر 2009، ساهم في هذا النقد سفير الولايات المتحدة في كابول **كارل إيكن بيري**، الذي سبق أن قاد القوات الأمريكية في أفغانستان برتبة جنرال ذي ثلاث نجوم. فقد كتب من كابول تقريرا تحت عنوان: "استراتيجية قمع التمرد: انشغالات المدنيين" مؤكدا "أنه لن يكون هناك حافز لدى الأفغان ليتحملوا مسئولية حكم بلدهم وتحقيق الأمن فيه، ما دمنا مصرين على إرسال قوات عسكرية إضافية. فـ **كرزاي** لن يكون الشريك الملائم مادام مصرا على النأي بنفسه والتنصل من مسئولية العبء القومي"[23] فتدفق الجنود لن يعمل إلا على استمرار المشكل. ويعتقد **هولبروك** أن السفير كان على صواب فيما ذهب إليه.

لم يُثر أثناء مراجعة الاستراتيجية النقاش حول دور العمل الدبلوماسي والتسوية السلمية. ذلك أن الالتزام بإيجاد تسوية سلمية للحرب كان من شأنه وضع الدبلوماسية في الواجهة وجعلها في قلب الحدث بينما تعمل العمليات العسكرية المنظمة وجهود الاستخبارات المبذولة في أفغانستان على مساندتها. كان **هولبروك** يرغب في أن يقوم الرئيس بالنظر مليا في هذا الخيار، غير أن البيت الأبيض لم يكن مقتنعا. ذلك أن العسكريين كانوا مصرين على تحمل المسئولية، ومن شأن أي عمل يقوم به الرئيس يعاكس إصرارهم يجعله ضعيفا.

كانت استراتيجية محاربة الإرهاب المكثفة (CT-Plus) تبدو هي أيضا محفوفة بالمخاطر ـ إذ كانت تبدو مجرد عملية كر وفر ـ وليس هناك ضمان يؤكد نجاحها دون استراتيجية قمع التمرد (COIN).[24] ففي العراق، أخذت القوات الخاصة على عاتقها مهمات "القتل والاعتقال" ورفعتها إلى مستوى صناعة تحترفها حيث مكنتها من تشتيت صفوف القاعدة والمتمردين والقضاء على الكثير منهم، غير أنها لم تبلغ مستوى يعكس تيار مجرى الحرب. وعلى النقيض منها، فإن استراتيجية محاربة الإرهاب لن تحقق مكتسبات على الأرض، وليس من شأنها كسب قلوب الساكنة المحلية وعقولهم؛ فهي مجرد تضخيم لتأثير استراتيجية قمع التمرد في العراق.

وعلى هذا النحو اختار **أوباما** الخيار السياسي الآمن الذي لم يكن راغبا فيه: حيث استجاب لما كان يرغب فيه العسكريون وأعطاهم كل ما يريدون. وهكذا انتهت الإدارة الأمريكية بعد قضائها شهورا في كتابة التقارير إلى خيار كان معروضا أمامها منذ اليوم الأول: أي إعادة تزويد استراتيجية قمع التمرد (COIN) تزويدا شاملا. والجديد أنها حددت سقفا زمنيا محددا في شهر يوليوز 2010 ينتهي فيه الالتزام الكبير للقوات الأمريكية واشتغالها في أفغانستان. فبعد هذا التاريخ ينتهي تدفق القوات الأمريكية ويبدأ انسحابها. والواقع أن الرئيس أخبر كلا من **كرزاي** وطالبان أن استراتيجيتنا الجديدة صالحة لمدة سنة.

وعلى أي حال، فإن التزويد الشامل لاستراتيجية قمع التمرد لم يحقق الأهداف المتوخاة. فقد حققت في البداية أهدافا طموحة دفعت بطالبان خارج أراضيها، غير أن مكتسباتها كانت مؤقتة وظرفية فحسب. وكمثال في هذا الباب، تلك

---

23 "Ambassador Eikenberry's Cables on U.S. Strategy in Afghanistan," New York Times, http://document.nytimes.com/eikenberry-s-memos-on-the-strategy-in-afghanistan#p=1.

24 James Dobbins, "Your COIN Is No Good Here," Foreign Affairs, October 26, 2010, http://www.foreignaffairs.com/articles/66949/james-dobbins-/your-coin-is-no-good-here?page=2

العملية التي قامت بها القوات الأمريكية في ربيع 2010 لتهدئة مقاطعة **مارجه** (مقاطعة فلاحية صغيرة من مقاطعة **هلمند** الأفغانية) وأثارت ضجة إعلامية دون أن تحقق شيئا يذكر.[25] وبعد انصرام ستة أشهر، أي في أوساط 2010، أرسلت الولايات المتحدة 30.000 جندي إضافي؛ وفي الفترة ذاتها توصل البيت البيض بتقرير أعدته الاستخبارات عن الوضع الأمني ينذر بوضع كئيب وغير سار. ذلك أن استراتيجية قمع التمرد لم تكن تحمل الأمن الموعود للأفغان: بل كانت تحمل معها قتل المزيد من الجنود.

كان نجاح استراتيجية قمع التمرد يتطلب نفقات باهظة لبناء الدولة في أفغانستان. فكسب الرهان، يتضمن بالضرورة تزويد البلد بحكومة وتوسيع قاعدة الخدمات الاجتماعية لقطع الصلة بين الساكنة والعدو وإبعادها عنه. وقد فعلت إدارة **أوباما** في هذا الباب أكثر مما فعلته الإدارة السالفة، غير أنه لم يكن بالعمل الكافي. فكتابة الدولة في الخارجية جندت نفسها للعمل في برامج مساعدة المدنيين. ومن ثم تحول **هولبروك** من رجل دبلوماسي إلى محارب في مجال التنمية، يرتب برامج التنمية ويقرر في شأن ميزانيتها والعاملين فيها. كان **هولبروك** حازما ومتشددا خاصة في شأن إعادة أكبر عدد ممكن من الأفغان للعمل في المجال الفلاحي، إذ أصبح الناطق الفعلي باسم الفلاحين ومزارعي الأشجار. إذ من شأنه القول في هذا الباب: ما دمتم لم تعملوا على إنعاش الاقتصاد الفلاحي في بلد ثمان أعشار سكانه يرتبطون بالفلاحة، فإنكم لن تتمكنوا من فعل شيء يذكر في هذا البلد.

ومن المثير للأسف أن المنطق الاقتصادي لا يستقطب المساعدة الأمريكية في مجال التنمية. ذلك أن المساعدات كانت تذهب أساسا إلى استراتيجية قمع التمرد. صحيح أنه بقدر ما كانت القوات الأمريكية تقاتل بضراوة لكسب أراضي جديدة بقدر ما كانت الأموال تصرف على مشاريع التنمية في المناطق المجاورة ـ لكن لم يكن جلها يصرف بحكمة. فمثلا 1 بالمائة من سكان أفغانستان فقط يعيشون في محافظة **هلمند**، بينما جل جهود قمع التمرد سنة 2010 (الأموال التي تصرف على الجنود والمساعدات) كانت تذهب إلى هذه المحافظة (هلمند).[26] وفي اعتبار كلي، فإن 6 بالمائة من الأفغان كانوا سنة 2011 يتوفرون على الكهرباء بينما أنفقت الولايات المتحدة مليار دولار لإيصال الكهرباء إلى مناطق محدودة في قندهار.[27]

لعل أفضل تشبيه لعمل استراتيجية قمع التمرد بتمثل في لعبة القط والفأر: فحين يتدفق الجنود الأمريكيون ويحتلون منطقة ما، كان طالبان يحزمون أمتعتهم ويرحلون إلى مكان آخر. وهكذا كان الأمن يستتب ويتحسن في المناطق التي يتمركز فيها الأمريكيون، بينما يتدهور في المناطق التي يقصدها طالبان. والواقع أنه لم تكن هناك أعداد كافية من الجنود الأمريكيين لتكون حاضرة في كل مكان، بينما لم تكن الحكومة الأفغانية تتوافر على القوات المؤهلة لتخفيف العبء عنهم. وهكذا استمر التمرد في البقاء حيا.

---

25 Chandrasekaran, Little America, pp.68-81.

26 Rashid, Pakistan on the Brink, p.76.

27 المصدر ذاته، ص. 19-20.

لكن العسكريين كانوا يحكون رواية مخالفة. رواية تركز أساسا على الإحصائيات التي هي في صالحهم أو تلك التي تبرز صمود الجنود الأمريكيين ويمكن استغلالها في ادعاء النجاح الكلي لاستراتيجية قمع التمرد. غير أن هذه الادعاء جاء بنتيجة عسكرية هي التي منحت **أوباما** مرتكزا استند عليه لتغيير موقفه كلية من استراتيجية قمع التمرد وقلب الطاولة في وجه العسكريين. وهكذا أضحى الرئيس قادرا على إعلان الانتصار والتخلص من سياسة لم ترقه منذ البداية، وأيضا التخلي عن سياسة لم تشتغل كما يجب (ولعل هذا هو الأهم). ففي حفل أقيم في **أكاديمية ويست بوينت** (ولاية نيويورك) في يونيو 2011، أعلن الرئيس أمام طلاب الأكاديمية أن الوضع تحسن في أفغانستان تحسنا يتيح لنا الحديث عن سحب القوات الأمريكية من أفغانستان. وهكذا ستنتهي حرب أفغانستان بحلول سنة 2014. فاستراتيجية قمع التمرد (COIN) نجحت في مهمتها ولم نعد في حاجة إليها ثانية.

كان هذا الموقف تغيرا مثيرا. فاستراتيجية قمع التمرد انتهت ليس في أفغانستان بل انتهت كاستراتيجية اختيار تنهجها الولايات المتحدة. إذ لم تعد أمريكا في حاجة إلى الانتصار في حروب قمع التمرد أو مد يد المساعدة لبناء الدولة في أماكن بعيدة عنها. فكما لو كان الرئيس يقول: إن علينا التركيز على قطع دابر المنظمات الإرهابية. وهكذا أخذت استراتيجية محاربة الإرهاب المكثفة (CT-Plus) تعوض بهدوء استراتيجية قمع التمرد (COIN).

والواقع أن موقفه ذاك حمل معه أكثر من مجرد تغيير الاستراتيجية. فقد أعلن عن جملة من الأولويات الجديدة التي تضعها الولايات المتحدة نصب عينيها. فمحاربة الإرهابيين وإصلاح أعطاب الدول الفاشلة اللذان استغلا في عمل أمريكا لم يعودا ضمن أولوياتها. لم ننتصر في أفغانستان بل انتصرنا أيضا على الإرهاب على نطاق واسع. الآن يمكننا العودة إلى معالجة القضايا العالمية، واستراتيجيتنا العسكرية ستعكس ذلك.

أعلن **أوباما** عن موقف أمريكا الجديد في خطاب ألقاه في الخامس من شهر يناير 2012، خص به خفض الميزانية العسكرية. كان **أوباما** يشير في خطابه إلى نهاية بناء الدولة البعيد المدى وما يواكبه من حضور عسكري. وأعلن أيضا أن الجيش الأمريكي سيغير وتيرة سرعته وبؤرة اهتمامه ليضعها في دول شرق آسيا والمحيط الهادي ـ حيث التقنية العالية (high-tech) واليد العاملة القليلة. ومن ثم فإن الخدمات "الزرقاء" (في إشارة إلى الزي العسكري الأزرق الذي تتخذه القوات البحرية والجوية) ستتولى الريادة مقارنة مع الخدمات "الخضراء" (نسبة إلى زي القوات البرية ومشاة البحرية المارينز) التي حملت العبء الأكبر في حرب العراق وأفغانستان. وفي متابعة لما جاء به الخطاب، أعلنت الإدارة الأمريكية توسيع نطاق قيادة العمليات الخاصة المشتركة (أي تبني استراتيجية محاربة الإرهاب)، وأكدت مرة أخرى على أن الولايات المتحدة لن تعود ثانية إلى المساهمة في بناء الدولة على غرار ما حاولت القيام به في العراق وأفغانستان.

الواقع أن تغيير الاستراتيجية على هذا النحو السريع ـــــ الذي أعلن ضمنيا انسحابنا الحتمي من أفغانستان ـــــ كان له أثر مدمر في المنطقة. فلم يكن الأمريكيون وحدهم هم من يستمعون إلى الرئيس. فالقوى الفاعلة واللاعبون الأساسيون في الشرق الأوسط كانوا ينظرون ويتطلعون بحذر إلى ما تقوم به أمريكا وهي تجرب المخططات الاستراتيجية في إرسال الفرق العسكرية التي أظهرت رغبتها في القتال، ثم وهي تتعب فجأة وتتخلى عن المسألة برمتها. وما رأوه لم يثر إعجابهم. ذلك أن سرعة التغيير من وتيرة السياسة على نحو مدوخ، كانت تظهر أمريكا كما لو كانت

دولة مترددة في قراراتها لا يمكن الاعتماد عليها. كما يستخلص من هذا التغيير أننا لا نمتلك فعلا استراتيجية أو أهدافا بعيدة المدى. فهدفنا الوحيد الذي بدا واضحا، هو الانسحاب: الانسحاب أولا من أفغانستان، الانسحاب ثانية من المنطقة برمتها تحت غطاء أو ذريعة "المحور الاستراتيجي" المتمثل في آسيا.

كتب المؤرخ النرويجي **غير لانديستات** قائلا إن الزعماء الألمان في عقد الستينات دافعوا عن حرب فيتنام أمام احتجاج الطلاب الألمان لاعتقادهم أن أمريكا تقوم بالعمل الصائب بتمسكها باستراتيجيتها وبحلفائها في جنوب فيتنام. إذ كانت أمريكا ترسل الرسالة الصائبة؛ فحين يحين الوقت ستتمسك أمريكا بهم أيضا "لكن انتهينا إلى مستوى أدنى يتساءل فيه المرء إذا كان بالإمكان الوثوق عموما بأمريكا."[28]

منذ أن وصل **أوباما** إلى سدة الرئاسة 2009 إلى غاية 2011، كانت وسيلة الضغط الوحيدة الذي نمتلكها للتعامل مع طالبان و باكستان، تتمثل في الإحساس بأننا سنقف وراء استراتيجيتنا ودعمها.[29] يمكن للمرء أن يحاج بأنه لم يكن لزاما علينا أبدا تبني استراتيجية قمع التمرد (COIN)، لكن لما فعلنا والتزمنا بها كان لزاما علينا عدم التخلي عنها بسرعة. فبعد أن أعلن الرئيس عن انسحابنا، فقدنا وسيلة ضغطنا، وفقدنا أيضا سلطة التأثير على المصير النهائي لأفغانستان. ما ذا سيحدث بعد؟ من سيثق الآن بصدق نوايانا والتزاماتنا؟ هل بإمكان استراتيجية محاربة الإرهاب المكثف (CT-Plus) أن تعمل لوحدها على المدى البعيد دون الاعتماد على جنودنا في الميدان، أو دون تعاون أصدقائنا وثقتهم ودعمهم، أو دون خوف من أعدائنا؟ من البديهي أن هذا غير محتمل. فحركة طالبان تعلم جيدا أن جنودنا إذا انسحبوا فلن يعودوا ثانية ـ فالكلفة باهظة إن عادوا. لكن إذا ضغطت علينا هذه الحركة، فإن الأكثر احتمالا هو توسيع نطاق عمليات استراتيجية محاربة الإرهاب عوض نشر قوات إضافية لحماية جنودنا.

لم يكن **أوباما** يتوفر على الخيارات الصائبة أثناء المراجعة، لذا قرر في النهاية ما ارتآه الأفضل لعكس مجرى الأمور، وأنهى مهمة استراتيجية قمع التمرد قبل أن يصبح فشلها باديا للعيان، وقبل أن ترتفع كلفتها. فالأفضل أن يخفض المرء خسائره، خاصة إذا كان بإمكانه ادعاء النصر على نحو ما اعتمادا على ما يقوله العسكريون. فلو طرحت أمامه خيارات أفضل مما حصل عليه ـــــــ أو لو طلب الحصول على خيارات بديلة كما هو متوقع من الرئيس الأعلى للجهاز التنفيذي ـــــــ فلربما كان بإمكان أمريكا أن تتفادى استراتيجية قمع التمرد باهظة الكلفة التي بدأت بها.

أما الخيار الذي لم يعره الرئيس اهتماما ولم يدرسه، والذي كان من شأنه الانتهاء إلى نتيجة مخالفة لمآل الحرب وانعكاسها على الولايات المتحدة، فهو خيار الدبلوماسية.

---

[28] Geir Lundestad, The United States and Western Europe since 1945: From "Empire" by Invitation to Transatlantic Drift (New York: Oxford University Press, 2003) p. 160, cited by Robert Kagan, The World America Made (New York: Knopf, 2021), p. 63.

[29] Fotini Christa and Michael Sempel, "Flipping the Taliban," Foreign Affairs, July/August 2009, http://www.foreignaffairs.com/articles/65151/fotini-christa-and-michael-semple-flipping-the-taliban.